الفشتاليين في المغرب الأقصى ودورهم في الحياة العامة

د.إيمان عبدالرحمن العثمان(*)

ملخص البحث

اشتهرت أسر مرموقة في المغرب الأقصى بمكانه اجتماعية، رفيعة المستوى لدى اولي الأمر ولدى عامة الشعب.

ولا شك في ان المكانة التي اكتسبتها قسم من هذه الأسر تعود إلى عدة أسباب منها الثروة التي امتلكوها والمكانة العلمية التي تمتعوا بها، ولنسبها الشريف، أو لاحتكارها وظائف رسمية.

ويعد بنو فشتال من ابرز هذه الأسر الذين ظهرت في المغرب الأقصى في عصر المرينيين (668هـ- 869هـ/1269م-1465م) وتمكنوا بفضل ما تمتعوا به من حنكة سياسية من الوصول إلى المراكز المهمة والمتقدمة في الدولة في عصر ما بعد المرينيين ولاسيما في عهد الدولة السعدية (956هـ- 1022هـ/ 1510م-1659م)، وقد كان لهم دور كبير في الحياة الثقافية واستلمت شخصيات من هذا البيت مناصب في الدولة وتركوا خلفهم بصمات واضحة في مجالات مختلفة فكان منهم القاضي والسفير والفقيه الأديب وقبل كل هذا كان لهم دور ديني واجتماعي متميز.

وسيتناول هذا البحث إيضاح دور (الفشتاليين) في المغرب الأقصى في عهد المرينين وهو عهد بروزهم وفي عهد الدولة السعديية إذ تبؤا أهم المناصب وكانت لهم مكانة كبيرة في البلاط السعدي حيث أصبحوا أعلام تلك الدولة آنذاك .

(*) مدرس في قسم التاريخ ،كلية الآداب،جامعة الموصل.

Al-Fashtals in Far Morocco and their role in Public Life

Dr. Eman Abdul-Ruhman

ABSTRACT

Prestigious houses in far Morocco were famous for their high level social status for the rulers and the common people .

There is no doubt that the status obtained by some of those houses was due to several reasons like the wealth possessed by them , the scientific status enjoyed by them , noble origin or possessing official positions .

Banu Fashtals were considered the most significant house appeared in far Morocco in the Age of Marinids (668 – 869 A.H. / 1269 – 1465 A.D.) . Being enjoyed by their statesmanship , they could access important and advanced positions in the state in the age of Mairinds , especially in the age of Saadia State (956 A.H. – 1022 / 1510 A.D. – 1659). They had great role in the cultural life and some figures of that house had accessed good positions in the state and left clear marks in various fields . them was judges , ambassador, jurist and authors .Moreover, they had distinguished religious and social role .

This research deals with the role of the Fashtals in Far Morocco at the age of Mairinds , the age of their prominence , and at the age of Saadia State . They accessed important positions and great position in the Saadian court .They became top figures in the Saadia State .

-أصل المرينيون وظهور دولتهم :

يعود أصل المرينين إلى قبيلة زناتة المشهورة والتي كانت موطنهم الأصلي في المغرب الأوسط (الجزائر حاليا) الواقع ما بين تلمسان * وتاهرت **. وقد بدأ المرينيون حياتهم السياسية والتي دامت أكثر من قرنين بصراع طويل ضد دولة الموحدين (541-667هـ/ 1446-1268م)، واستمر ثمان وخمسين سنة وكان لصراعهم مع الموحدين في ميادين القتال في بلاد المغرب والأندلس الفضل الكبير في تعرف المرينيين واط ـ لاعهم على كثير من الخبرات في مجالات السياسة العسكرية ، ولاسيما الحرب والقتال إذ اقتبسوا هذه الخبرات من الموحدين وأضافوا إليها قوتهم وخبرتهم، وقد قاد المرينيون مراحل هذا الصراع ببسالة وعزم منذ وطئت أقدامهم أرض المغرب الأقصى، ومر هذا الصراع بمراحل عدة استطاع المرينيون بما لديهم من قوة ودراية بالأحداث ان يتفوقوا على الموحدين ، وقد استطاع الأمير أبو بكر يحيى بن عبد الحق المريني في سنة (642هـ/1248م) من دخول مدينة فاس التي ظل يحكمها إلى سنة (656هـ/1258م). (1)

وتقـــدم أبـــو يـــوســـف يعـــقوب بـــن عبـــد الـــحق المريني (656هـ- 685هـ/ 1258م-1286م) باتجاه مراكش عاصمة الموحدين فدخلها سنة 668هـ- 1269م وبهذا طوى الأمير يعقوب عبد الحق المريني آخر صفحة من صفحات الدولة الموحدية في بلاد المغرب ( ).

وكان قد جعل مقره في قصر القصبة وعلى مقربة من القصر أسس الجامع الكبير (3)، وبعد إعلان الدولة الموحدية، قام أبو يوسف يعقوب المريني بجهود سياسية ضخمة، كان من أهدافها تأسيس الدولة الجديدة ، وتدعيم أركانها وإظهار سطوتها وقوته(4).

وكان جل اهتمام المرينيين في بداية حكمهم بسط الأمن والاستقرار في ربوع المغرب، فقد ذكر المؤرخ المغربي ابن عذاري المراكشي عن قيام دولة المرينيين

بتحقيق هذا الهدف بدليل قوله ((إنهم امنوا السبل، وسدوا الخلل فاتسعت أحوالهم وانبسطت أمالهم ، فصار أهل تلك البلاد يعظمونهم غاية الإعظام ، ويعاملونهم بالبر والإكرام))[Ñ].

كما كان لهم دورا كبيرا في دعم الأندلس ماديا وبشريا والجهاد ضد الممالك الاسبانية الشمالية بحيث أصبح المرينيين ظهيرا أمينا لمملكة غرناطة يذودون عن ما تبقى من مدن الأندلس ضد الممالك الاسبانية ، وذلك من خلال استحداث منصب عسكري استخدموه عرف بمشيخة الغزاة [Ò] واليهم يعود الفضل في استمرار مملكة غرناطة فقد ذكر المقري ((لم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال وتركوا حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة))[Ó].

-دور حكام بني مرين في الحركة الفكرية والأدبية :

شهدت بلاد المغرب في عهد المرينيين استقرارا سياسيا وازدهارا اقتصاديا عم جميع مرافق الحياة ، مما هيأ ظروفا مناسبا للنهضة العلمية التي شهدتها البلاد [Ô]، فحفلت دولتهم بالعديد من مشاهير العلماء ما بين فقيه وأديب ورحالة إلى غير ذلك من أهل العلم ، وبتأليف في مجال العلوم النقلية والعقلية ساعد على ازدهارها وديمومتها [Õ] فقد شهد عــــهد السلــــطان أبي عنان المريني (749- 759 هـ/ 1348-1357م)تشجيعه لعلماء عصره ورعايته ودعمه للحركة العلمية، فضلا عن تأسيسه خزانة للكتب بجامع القرويين ضمت نوادر الكتب من مختلف أنواع العلوم فضلا عن خزانة كبيرة خصصت للمصاحف الشهيرة وبخطوط لعلماء مشاهير أهل عصره [Ö] ، والجدير بالذكر ان سلاطين بنو مرين كانوا يرعون مجالس العلماء وليس ذلك فحسب بل كانت مجالسهم عبارة عن ندوات علمية رفيعة المستوى فالذي دفع سلاطينهم إلى عقد هذه المجالس ، شغفهم بالعلم وحبهم للمعرفة الذي كان السمة الغالبة على أكثر حكامهم وبهذا الصدد يقول المؤرخ الكتاني ((وكانوا من أحسن الملوك سيرة وسياسة ونباهة وكان فيهم الفقهاء والملازمون لمجالسة العلماء

ولذلك استفحل ملكهم وطالت دولتهم وعظمت صول تهم فكانها مقراً للعلوم والأخبار ومحل اجتماع دائرة العلم الذي عليه المدار))[×].

وقد شهد البلاط المريني في عهد السلطان أبي الحسن المريني (731هـ-752هـ/1330م-1351م) انعقاد مجالس العلم التي شهدتها الدولة المرينية ، إذ احتضن البلاط المريني في عهده حشداً من العلماء ، وعلى الرغم من عدم وجود إحصائية ثابتة لعدد العلماء أبان عهده ألا أن بعض الكتب التاريخية المغربية أفصحت عن كثرتهم في حادثة غرق الأسطول البحتري المريني في سنة (749هـ/1347م) عند رحيل أبي الحسن المريني من افريقية وقد استشهد بها أربعمائة عالم [ïï].

وكان كثير من سلاطينهم محباً للعلم مهتماً به فعلى سبيل المثال لا للحصر كان السلطان أبي العنان المريني السلطان العاشر ((فقيهاً يناظر فيه العلماء وكان عارفاً بالمنطق وأصول الدين وله حظ صالح من العربية والحساب وكان حافظاً للقرآن عارفاً بناسخه ومنسوخه حافظاً للحديث عارفاً برجاله فصيح القلم كاتباً بليغاً))[ïï]، ووصف الرحالة ابن بطوطة في عدله وحلمه بقوله فقد ((شاعت منه العجائب فانه أيده الله عفا عن الكثير من تعرض لقتل عساكره))[ï].

عاش المغرب في عهد بني مرين في ظل نهضة أدبية ذات طابع خاص، إذ انطبعت بطابع الرقي، وعاش الفقهاء والأدباء في ظل السلاطين الذين قربوهم لمجالسهم وشاورهم في أمورهم وأنتجوا نتاجاً كان في غالب الأحيان لهؤلاء الملوك بإيحاء أو بتشجيع منهم، كما عاشت هذه النهضة في المدن الكبرى مثل فاس ومراكش وبعض الحواضر الأخرى، التي كان لها نصيب من الحضارة والعمران فكان الأساتذة والطلاب يرون في بلاطهم مرتعا وميداناً خصباً، وكان ثمار ذلك جنتها الحركة الفكرية في المغرب ، والدليل على ذلك انه قلما نبغت شخصية في الأدب أو

في الفكر، إلا وكانت اسما ضمن مشاهير العلماء والأدباء الذين كانوا يعيشون في ظل ملوك بني مرين وأمرائهم[ïÑ].

- دور بني مرين في إنشاء المراكز العلمية:

شهد بنو مرين حركة عمران للنهضة العلمية تتجلى في إنشاء المدارس للطلبة في كل مدينة من مدن المغرب، وشملت عناية الملوك واشرفوا عليها بأنفسهم إذ شيدت في أروع مثال وأبهى حلة وتفنن المهندسون في تشييدها، فكانت مقراً لإيواء الطلبة، الذين وجدوا فيها الأمن والراحة والاستقرار الذي ساعدهم على أداء رسالتهم العلمية والثقافية، فقصدوها في كل ناحية استكمالا لدراستهم والأخذ من مشاهير العلماء والأدباء، [ïÒ] فقد زادت المدارس في عهد المريني عن عهد المرابطين والموحدين ، وكان لكل مدرسة أستاذين يراجعان مع التلاميذ وازدهرت الدراسات في جامع القرويين في عصر المرينين ازدهارا كبيرا ، وأصبح جامع القرويين ملتقى الأجانب من مختلف البلدان وشيدت تسعة مدارس في أربع مدن مغربية وكانت ستة منها في مدينة فاس ، وهي مدرسة الحلفاويين [ïÓ] سنة (675هـ/1276م) ومدرسة البيضاء[ïÔ] في فاس الجديدة التي بدا بتشييده ا عام (720هـ/1320م) ، ثم كملت وبدأت بتدريب الطلبة عام (721هـ/ 1321م) ومدرسة الصهريج وهي الواقعة في غرب جامع الأندلس ومدرسة السبعين[ïÕ] ، ومدرسة العطارين على مقربة من جامع القرويين ومدرسة الوادي، وبنيت أسفل جامع الأندلس وكانت في هذه المدارس يدرس فيها الطلبة لعلوم الفقه وأصوله والقراءات القرآنية والنحو ويقوم بإلقاء الدروس أساتذة بارعين في العلوم المختلفة[ïÖ].

وكما سبقت الإشارة إلى ذلك كانت المساجد تقوم برسالتها الدينية والفكرية فامتلأت بالعلماء والفقهاء ، فضلا عن ذلك كان اهتمام المرينيين بخزائن الكتب، منها الخزائن التي أسسها أبو عنان المريني سنة (750 هـ-1349م) والتي وصف

كنوزها ابن القاضي في جذوة الاقتباس، فقد ضمت خزانة يوسف الموحدي وأصبحت من أهم خزائن العالم الإسلامي(×ï).

-نبذة عن الحركة الفكرية في عصر السعديين(956هـ - 1022هـ/1549م-1613م)

ينتمي السعديون إلى أسرة تنحدر من نسل محمد النفس الزكية من أبناء الحسين بن علي (ﷺ)(ï)، وقد تغيرت أوضاع المغرب تغييراً عميقاً خلال العصر السعدي في جميع الميادين السياسية والاقتصادية والفكرية واستبدلت حالة الضعف والانقسام التي خيمت على ربوعها طوال (القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي)، بحالة من القوة والوحدة غير أن هذا التحول لم يتحقق بين عشية وضحاها وإنما ظل يتقدم مع انتشار نفوذ السعديين، فقد واجه السعديين عندما وصلوا إلى الحكم مغرباً ممزقاً ساده العبث والنهب والخراب ، وتوالت عليه هجمات النصارى حتى بلغت مراكش وأرغمت قبائل الحوز على دفع جزية سنوية(ï).

والمتتبع لتطور الحركة الفكرية بالمغرب يلاحظ الركود نتيجة الانقطاع الذي حدث في أواخر العهد المريني (759هـ-869هـ/1357م-1465م) إذ تحول من عصر نشاط القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي وهي الحقبة التي عاش فيها كـــــل مـــــن ابـــــتن رشيد السبتي توفي عام (721هـ/1321م) وأبن أبي زرع ت (726هـ/ 1336م) وعشرات العلماء، ينتقل إلى خمول القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي إذ لا يوجد فيها أديب لامع أو مؤرخ أو حتى مؤلف في التراجم باستثناء بعض الفقهاء والمتصوفين الذين لا يستغني عنهم المجتمع.

وكانوا هؤلاء القلة فضلا عن كونهم من أهل العلم يشاركون في الجهاد بالعمليات العسكرية حيث ما وجدوا إلى ذلك ضرورة بتقسيم وقتهم ما بين الجهاد والتدريس كالعالم عبد الله الورياغالي، الذي كان يسكن مدرسة في مدينة القصر

الكبير. ويشتغل بالتدريس في مسجدها خلال فصل الشتاء والربيع ثم يخرج إلى الجهاد بقية السنة ضد الممالك الاسبانية والبرتغالية ( ).

وتعددت المراكز الثقافية في أيام السعديين وتكاثر عدد العلماء والطلبة بعد أن أخذت الأحوال الداخلية تستقر والأمن ينتشر طول البلاد وعرضها فضلا عن تيسير أسباب العيش لتحسين الأوضاع الاقتصادية، وقد تطعمت العناصر العلمية الوطنية بأخرى أندلسية وشرقية فازدادت واتسعت آفاق المعرفة اتساعاً واسعاً(Ñ).

فضلا عن مشاركة فئة من مشايخ الطرق الصوفية ودعاتها والتي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن البلاد أما بالمشاركة الفعلية أو عن طريق الوعظ والحث على الجهاد في الوقت الذي غاب دور الدولة الوطاسية لانشغالها بصراعاته ا وانقسامها حيث صـــــرفها عن اتخـــاذ موقف واضح تجاه الغزو الاسباني والبرتغالي (Ò).

قبيلة فشتالة

وهي إحدى بطون قبيلة صنهاجة استوطنوا الهضاب والأودية وكانوا يسكنون في بيوت بسيطة في الشمال الغربي لمدينة فاس ومواطنهم بورغة يحترفون مهنة الحياكة والحراثة ولغتهم اغلب الظن عربية(Ó).

ومن المعروف ان قبيلة صنهاجة كانت من اكبر القبائل المغربية من حيث العدد وتقسم بدورها إلى سبعين بطن أشهرها لمتونة وكدالة ومسوفة ولمظة ومسراته وفشتالة(Ô).

وقد عد المؤرخون ان بنو فشتال من أول الذين بايع عثمان بن عبد الحق المريني (ت 638 هـ/1240م) وكانت معها عدد من قبائل المغرب منها هوارة ورزكاره ثم بطوية ، وصالحأهل فاس على أموال معلومة يؤدونها إليه في كل سنة على ان يؤمن بلادهم وي دفع عنهم الهجمات ويذكر ان أول من بايع أبو يوسف

يعقوب بن عبد الحق المريني (685هـ – 707هـ/ 1286–1307) هوارة وزكارة ثم مكناسة ثم فشتالة هؤلاء هم السابقون فرفع عنهم ضريبة الخراج[Õ].

وفي عصر الدولة السعدية التي امتدت أكثر من 60 سنة ظهر آل فشتال بشكل واضح وأكثر من الحقبة التي سبقت السعديين فـــقد أشـــار القادري إلى أنهم ((جماعة منهم من كان بالمائة الثامنة وقبلها وبعدها ولم نعلم أحد اليوم ينسب إليهم))[Ö].

فقد احتل الفشتاليين مناصب كبيرة في الحياة العامة في وقت كان البلاط السعدي يزخر بكبار العلماء في شتى مجالات الأدب والثقافة مثل احمد المنجور[×] وعبد الله محمد الجزوري[ÎÑ] وآخرون .

أعلام بنو فشتال :

نبغ من بنو فشتال جماعة في العلم والأدب وتولى بعضهم مناصب مهمة في الدولة قدمتهم إلى ذلك المؤهلات الذي كانوا يتمتعون بها من العلم وشهرة النسب فكان منهم السفير والقاضي وتصدروا التدريس والفتوى في أكثر من مكان ، فقد تم وصفهم (ببيت معمور بالجود والصلاح)[ÏÑ]و(بيتهم من بيت كبير)[Ñ] .

أما عن دور رجال بنو فشتال فهو كما يأتي :

– المجال الداخلي :

يعد أبو محمد عبد الله الفشتالي من ابرز فقهاء القرويين وقد حضر بيعة المرينين عند دخولهم مدينة فاس وكان البيعـــة بخـــارج بـــاب الفتـــوح سنة (646هـ/1248م)[ÑÑ].

فعندما عزم أبو يحيى بن عبد الحق المريني على انتزاع مدينة فاس من الموحدين وبدا في ملاطفة أهلها ، وضمن لهم الآمان ودفع عنهم الأذى فأجابوه ووثقوا به وركنوا إلى طاعته ونبذوا طاعة عبد المؤمن الموحدي فحضرا أبو محمد عبد الله الفشتالي هذه البيعة وكان حضوره ملاك العقدة[ÒÑ].

وفي سنة (656هـ/1258م) توفي الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني بمدينة فاس بعد أيام من مرضه ودفن بباب الجيزين احد أبواب عدوة الأندلس ودفن بإزاء قبر الفقيه أبو عبد الله محمد الفشتالي تبركا به (ÑÓ) ، وعندما تأخر الفقيه أبو عبد الله محمد عبد الغفار خطيب القرويين طلبوا من أبو محمد عبد الله الفشتالي ان ينظر لهم خطيبا فوعدهم ان يستخير الله فيمن يصلح لذلك ، فلما كان صباح اليوم التالي جاءه الناس الذين وعدهم فقال لهم عليكم بابن الحاج(ÑÔ) فامتنع في البداية ثم أجاب بعد ذلك .

- القضاء

اعتبر خطة القضاء من أعظم الخطط عند الخاصة والعامة وذلك لتعلقها بأمور الدين والدنيا فمن صلاحيات القاضي استدعاء من يشاء لصالح القضية كالسلطان ومن دونه (ÑÕ).

وقد تولى القضاء من بنو فشتال أبو مروان عبد الملك بن شعيب الفشتالي (ت 706هـ/ 1306م) الذي كان فقيها وقاضيا (ÑÖ) ليوسف بن يعقوب المريني (657هـ-685هـ/1258م-1286م) وتولى القضاء أيضا محمد بن احمد بن عبد الملك الفشتالي فقد كان هذا قاضيا للجماعة بفاس وقدمه بهذا المنصب أبو عنان المريني سنة(756هـ/1355م)، وكان له سمت لم يكن لغيره من القضاة ، وله صبر على المكاره ، في عهد ولايته سكن الناس إليه ووثقوا فيه ، تولى القضاء في أكثر من مدينة في المغرب العربي قبل ان يستقضى في مدينة فاس(Ñ×).

- الخطابة

كان من بنو فشتال في الخطابة أبو عبد الله محمد بن احمد الفشتالي كان خطيبا لأبي عنان فارس المريني(ÒÎ) .

أبو محمد عبد الله الفشتالي كان من فقهاء جامع القرويين وله رأي في تنصيب خطباء القرويين(ÒÏ) .

-التدريس

كان أبو مروان عبد الملك بن شعيب الفشتالي له مجلس تدريس في جامع القرويين بالإضافة لتوليه القضاء بفاس[Ò] .

وكان محمد بن احمد عبد الملك الفشتالي له مجلس جليل في العلم وكان يدّرس المدونة في الفقه وغيرها [ÒÑ] في مدرسة العطاريين بفاس حضر مجلسه عدة شخصيات وأجاز لهم ومنهم ابن الأحمر ، وكان على شدة وقاره وتعاظم مكانته في العلم ، كثير النزول للطلبة والحرص على الإفادة والصبر عند المباحثة ، وكان من عادته تقديم الفقه على التفسير [Òò]، وكان احمد بن محمد الفشتالي المعروف ببقر الله (ت865هـ/1460م) كان يعلم الأولاد بطالعة الفاس وكان مشهور بالديانة وكان ينجر أعواد السرح في أوقات الفراغ من التعليم[Òó]، ويختم القران الكريم كل ثلاثة أيام وكان أخر كلامه في الدنيا ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾[Òô].

ومن المؤرخين من بنو فشتال :

عبد العزيز محمد الفشتالي ت (1032هـ-1031م)

الكاتب لواسطة عقد ملوك دولة السعديين السلطان أحمد المنصور الذهبي[Òõ] (986-1012هـ/1578-1604م) الذي ولاه بمراكش منصب وزير القلم الأعلى في عهده وكلفه بتدوين أخبار الدولة السعديية فكان مؤرخاً رسمياً للدولة، وكانت له شخصية أدبية وسياسية لها وزن كبير في المغرب، دخل سلك الدولة في سنة (990هـ/1582م) وأصبح من المقربين لأحمد المنصور[Òö].

وقد أشاد كثير من المؤرخين ومنهم معاصريه مثل احمد المقري الذي عاش في نفس الحقبة فقد امتدح شعره وأدبه ووصفه بأنه مؤلفه نفح الطيب يضيق (بتأليف وشعر هذا العالم)[Ò×].

ويعد كتابه (مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء) سجل تاريخ للدولة السعديية وهو في الأصل كتاب كبير فقدت منه أجزاء ثم وجد منه مختصر الجزء الثاني في خزانة السيد عبد الله كنون والجزء الأخير في الخزانة السلطانية بفاس[ÓÎ].

وقد اعتماد كثير من المؤرخين على كتاب مناهل الصفا ولاسيما فيما يخص فترة الدولة السعديية وحكامها وكتابه يتناول فترة السلطان أحمد المنصور الذهبي حيث أشاد بأعماله واهتم بالأحداث السياسية بالإضافة إلى ذلك كان كتابه احد مصادر الوفراني في كتاب (نزهة الحادي) فقد وصفه بمتولي تاريخ الدولة المنصورية فضلا عن ذلك لعبد العزيز الفشتالي (نونية الفشتالي) في مدح الرسول (ﷺ) وتنتهي إلى مدح أحمد المنصور. وله شعر أيضاً في معركة وادي المخازن التي وقعت في سنة (986هـ/1587م) [ÓÏ].

وقد فضل كثير من النقاد والمحدثين نثر عبد العزيز الفشتالي على نثر لسان الدين الخطيب[Ó].

بينما نجد أحمد المقري كلما أورد قصيدة أو قطعة شعرية أو نثرية للفشتالي أثنى وأطرى عليه [ÓÑ].

ويصف القادري عبد العزيز الفشتالي الكاتب الأرفع البليغ الأرفع، صاحب القلم العالي والقدم التي رسخت بالبلاغة على هام المعالي[Óò].

وكان له شعر منقوش على مباني الدولة السعدية تركت له أثراً كبيراً على مر الأجيال، ولم يتم جمع شعر عبد العزيز الفشتالي ورسائله في ديوان رغم كثرتها وجودتها. وبقيت مبعثرة في كتب التراجم والأدب ومنها كـــتاب (رسائل سعدية) وكتاب (المنتقى المقصور) وكتاب (نزهة الحادي) وله تأليف أخر (مدد الجيش) فيه موشحات عارض به موشحات لسان الدين ومضيفاً له عدد وافر من موشحات شعراء المغرب على عصر السعديين ومنها ما يخص مدح أحمد المنصور[Óò].

ومن الملاحظ في نهاية دولة السعديين ظهور شخصيات من آل فشتال ولكنها لم تحظى بالشهرة والمكانة التي حظي أعلام هذا البيت في العصر المريني ومنهم أحمد علي الفشتالي (ت 1015هـ/1607م) كان أديباً وشاعراً ولكنه لم يشتهر لكونه عاش في بادية فشتالة دون أن يلتحق بمدينة مراكش أو مدينة فاس[óĝ].

سليمان بن أحمد الفشتالي (ت 1028هـ–1794م) فقيه وناظم له علم الفلك والتوقيت وله شرح سلك اللالي في مثلث الغزالي [óĝ̃].

وعبد القادر أحمد الفشتالي (ت 1030هـ/1620م) وكان أيضاً أديباً وشاعراً غادر بادية فشتالة وذهب إلى مدينة مراكش ليكون كاتب أبي فارس عبد الله الواثق بن أحمد المنصور الذهبي [óğ] . وأبو القاسم أحمد المعروف بالغول الفشتالي (ت1059هـ–1639م) وكان فقيهاً فضلا عن مهارته في الطب والهندسة ، ودرس في فاس وتخرج على يده طلاب ثم عاد إلى البادية له تأليف (الجمع بين الأحاديث النبوية للأطباء والحكماء) [ó×].

- التصوف

ينسب إلى بني فشتالة جماعة كانوا من الصوفية تروى عنهم كرامات مشهورة في بلاد المغرب فقد ذُكر عن أبا موسى الفشتالي بأنه يأوي إلى الأماكن الخالية ويروى عنه التادلي رواية سمعت من علي بن داود ((رأيت أبو موسى بمسجد في قرية (بطم) في صلاة المغرب فلما صلى انتظرته ان ينتقل في صلاته فشرع في التنفل إلى ان صلى صلاة العتمة فتقدمت إليه وجعلت يدي في يديه وقلت له ظفرت بك ولم أزل انتظرك من صلاة إلى الآن فاذهب معي إلى المنزل لتبيت عندي الليلة فقال لي انظر في أمر ثورك الذي افترسه الأسد في موضع كذا فأرسلت يدي من ثوبه وبادرت إلى الدار فطلبت الثور فلم أجده فأمرت عبيدي ان يتبعونني وتقدمت إلى المكان الذي سماه لي فوجدت الثور قد افترسه الأسد وعلمت انه كوشف بذلك)) [illegible].

- الشعر

كان أبو عبد الله محمد بن احمد بن عبد الملك الفشتالي شاعرا مجيدا ويتبادل الشعر مع لسان الدين الخطيب :

خاطب ابن الخطيب الفشتالي بقوله :

من ذا بعد فضائل الفشتالي والدهر كان أية والتالي
علم إذا التمسوا الفنون بعلمه مرعى المشيح ونجعة المكتالي
نال التي لا فوقها رفعة ما أملتها حيلة المحتال

فرد أبو عبد الله الفشتالي عليه :

وافت الزهو فضله بردها حسناء قد أضحت نسيجه وحدها
لله أي قصيدة أهديت لو تهدي المعارف نحو غاية قصدها [ÔÏ]

ومن شعر عبد العزيز الفشتالي

وهي عبارة عن جملة من القصائد كتبت على المباني الملوكية بمدينة مراكش ومنها خارج القبة الخمسينية وهي إحدى البنايات الأثرية التي تعود إلى الدولة السعديية :

سموت فخر البدر وانحطا وأصبح قرص في إذني قرطا

ولاحت باطوافي التربا كأنها نثر الجمان قد تبعته لقطا

وأجريت من فيض السماحة والندى خليج على نهر المجرة قد غطى [Ô]

وفي المجال الخارجي :

-السفارة

من المعلوم ان السفارات كانت إحدى المهمات التي كلف بها في معظم الأحيان علماء كبار في المغرب فقد كانوا هؤلاء مهيئون بطبيعتهم أكثر من أي طبقة للقيام بهذه المهمة ، فان تدرجهم طوال فترة طلبهم للعلم يكسبهم انضباطا مفرطا أمام من يتقدمه خبرة ومركزا ، وان ممارستهم اليومية لآداب المعاملة والمخاطبات وحفظهم لأخبار الماضيين جعل منهم عنصرا مرغوبا في الاستئناس بحديثهم ، ثم أنهم ما جبلوا عليه من إصلاح ذات البين بين الناس كان عاملا قويا في تكليفهم لتلك المهمات ، فضلا عن أنهم كانوا رجال دين ، يعرفون سلفا ما يجوز الإقدام عليه والبت فيه من اتفاقيات ومعاهدات ، لذلك تكون اتفاقياتهم غير معرضة لانتقادات الشعب[ÔÑ] ، وكونهم علماء يكونون مؤتمنين على ما يقومون به [Ôò] فقد تولى السفارة أبو عبد الله محمد بن احمد الفشتالي توفي سنة (777هـ/1375م) أرسل من قبل أبو عنان المريني سفيرا إلى الأندلس ، وكان صدرا في الوثائق والأحكام له تأليف بها ، ولها تأليف أخر (كلام في الدعاء بعد الصلوات) واخذ عنه جماعة من العلمـــاء في عصــره [Ôó] ، وتولى أبو عبد الله محمد بن علي الفشتالي (ت1021هـ/1633م) بسفارة إلى القسطنطينية مع علي بن أبي عبد الله التمكروتي سنة (997هـ/1589م) وقد كانت السفـــارة مصحوبة بهدية جليلة إلـــى السلطـــتان العثماني مراد الثالث (982هـ-1003هـ/1574م-1595م) واستمرت في رحلتها فترة امتدت إلى أخر السنة التالية ، وتمتاز هذه الرحلة بأهميتها التاريخية بكون علي التمكروتي [Ôô] قد دون انطباعه من خلال هذه السفارة وسمـــاها (النفحة المسكية في السفارة التركية) ، فقد عبرا إلى مدينة القسطنطيني ة عبر ميناء مدينة تطوان وقد سجلت هذه السفارة معلومات كثيرة عن حال مدينة تونس ومصر ومعاملة الأتراك لأهلها والتي كانت تحت سيطرة العثمانيي ن وفيها

وصف رائع للمعالم الأثرية للقسطنطينية ومنها جامع آية صوفيا وفي هذه السفارة تزوج الكاتب محمد بن علي الفشتالي بفتاة رومية وأنجبت له ولدين توأمين بمدينة الجزائر وفي طريق عودتهما أعطاهما اسم عبد العزيز وإبراهيم [ÔÕ] وخلف أبو عبد الله محمد الفشتالي من الآثار النثرية والشعرية ما هو مذكور في كتاب (مناهل الصفا) وله علاوة على ذلك (لامية الوفيات) والتي نظم فيها كتاب (شرف الطالب) لأحمد بن قنفذ وذيلها لقط الفرائط وتقع اللامية في ثلاثة آلاف بيت وفيها ذكر ابن قنفذ وفيات الأعيان من زمن النبوة إلى تمام المائة الثامنة [ÔÖ]، وزاد عليها أبو عبد الله محمد الفشتالي إلى سنة ألف ، وله تأليف (مجموع رسائل) كتبت كلها باسم احمد المنصور الذهبي في فترة تقلده الخلافة إلى وفاته وتمتاز هذه الرسائل بما تحمله من تاريخ محدث وما تكشف من موضوعات تاريخية مهمة[Ô×].

هوامش البحث

(*) تلمسان هي قاعدة المغرب الأوسط تقع على سفح الجبل وهي دار علم وفقه ومقصد للتجار اشتهرت بزراعتها وحصونها ينظر : أبو عبد الله محمد بن محمد الإدريسي ، المغرب وارض السودان ومصر مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، (ليدن –1968م) ، ص81 .

(**) تاهرت وهي مدينة قديمة وكبيرة من مدن المغرب العربي اشتهرت بتجارتها وأسواقها ومزارعها وكانت عبارة عن مدينتين كبيرتين إحداهما قديمة والأخرى محدثة ولها ثلاث أبواب. محمد بن عبد المنعم الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : إحسان عباس ، (بيروت –1980م) ، ص126.

(1) محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الاسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم ، (الكويت– 1987م) ، ص 10.

(2) روجيه لو تورلو ، فاس في عصر بني مرين ، ترجمة ، نقولا زيادة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر (بيروت- 1967م) ، ص101 و 102.
(3) محمد المنوني ، ورقات عن حضارة المرينيين ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، (الرباط- 2000م) ، ص 28.
(4) الحريري ، تاريخ المغرب الاسلامي ، ص22.
(5) احمد بن محمد المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق جورج كولان، (بيروت-1951م)، 408/2.
(6) محمد بن احمد ابن شقرون، مظاهر الثقافة المغربية في القرن الثالث عشر الى القرن الخامس عشر، دار الثقافة، (الرباط- 1981م)، ص54 .
(7) شمس الدين احمد بن محمد التلمساني ، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، مطبعة السعادة، (مصر- 1949م) ، 6/ 136.
(8) حسن السائح ، الفكر المغربي في عصر بـــني مرين ، مجلة دعوة الحق ، العدد 2 ، السنة السادسة ، الرباط 1962 ، ص38 .
(9) السائح ، الفكر المغربي، ص55 .
(10) السائح ، الفكر المغربي، ص38.
(11) محمد بن جعفر بن ادريس الكتاني، سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء، (فاس- 1929م)، 3/ 168.
(12) أبو الحسن علي الجزنائي ، جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس، المطبعة الملكية، تحقيق ، عبد الوهاب منصور (الرباط- 1967م)، ص83 .
(13) احمد بن محمد القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، دار المنصور ، (الرباط- 1973م)، ص315.
(14) محمد بن عبد الله اللواتي بن بطوطة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1971م) ، ص669.

(15) شقرون ، مظاهر الثقافة، ص136.

(16) عبد الله كنون، النبوغ المغربي، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت– د.ت) ، 195/1.

(17) مدرسة الحلفاويين وهي من بناء أبي يوسف المريني ، وهي من أول المدارس التي شيدت في المغرب، الجزنائي جني زهرة الأس، ص81 .

(18) بناها أبو سعيد المريني في عام 720هـ–1320م ، ابن أبي زرع الفاسي ، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فأس ، (الرباط –1973م) ، ص264 .

(19) مدرسة السبعين والصهريج تم بنائهما من قبل أبي الحسن المريني وبلغت كلفة بنائهما على مائة ألف دينار مغربي ، ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص299 .

(20) احمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، تحقيق جعفر الناصري، دار الكتاب،(الدار البيضاء– 1954م) 2/ 74 .

(21) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ص73.

(22) كانت السلطة الوطاسية قائمة على فأس ومراكش وقد أصبحت عاجزة عن رد العدوان البرتغالي نتيجة الاتفاقيات قد عقدتها مع البرتغال ، عبد الكريم كريم ، المغرب في عهد الدولة السعديية ، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ، (المغرب–1977م) ، ص16 .

(23) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، منشورات دار المغرب ، (الرباط–1976م)، 15/2 ، واختلفت آراء المؤرخين في أصل ونسب السعديين وأكثر الآراء تذكر أنهم ينتمون إلى سلالة الأشراف ،ينظر:الناصري، الاستقصا،3/5.

(24) الوريا غالي ، احد أشهر علماء الدولة السعديية في الفرائض والرياضيات ، اشتهر بالتدريس في مدينة فأس توفي سنة 961هـ/1455م ، حجي ، الحركة الفكرية، 355/2 .

(25) كريم، المغرب، ص26 .

(26) شوقي عطا الله ، الجمل ، المغرب العربي الكبير من الفتح الإسلامي إلى الوقت الحاضر ، (مصر-1977م) ، ص165 .

(27) ابن سماك العاملي، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق عبد القادر بوبايه، دار الكتاب، (بيروت-2010م)، ص263؛ أبي بكر الصنهاجي ، الأنساب في معرفة الأصحاب ، تحقيق عبد الوهاب بن منصور ، دار المنصور(الرباط- 1971م) ، ص54.

(28) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص120.

(29) عبد الرحمن بن محمد الحضرمي بن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبناني ،(بيروت- 1986م) ، 206/6 ، والخراج هي ضريبة الأرض الزراعية وتؤخذ من الأرض التي فتحها العرب ثم تركوها بيد أهلها لقاء مبلغ معين يؤدونه سنويا إلى بيت المال ، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم الأنصاري ، الخراج ، المطبعة السلفية ، (القاهرة-1923م) ، ص69 .

(30) محمد بن طيب القادري ، نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني عشر ، تحقيق : محمد حجي ، مطبوعات دار المغرب للتأليف ، (الرباط-1977م) ، 247/1.

(31) أبو العباس : احمد بن علي احد علماء العصر السعدي في الحديث والفقه والفرائض والبيان ، اخذ عن كثير من أعيان العلماء في عصره في المغرب ، توفي 959هـ/1586م، ابن القاضي ، جذوة الاقتباس، ص125 .

(32) عبد الله بن محمد الجزوري : احد سفراء العصر السعدي ارتحل إلى المشرق واخذ من علماء العصر فـــ ي مــــ صر وبلاد الشام ، الناص ـــ ري ، الاستقصا، 89/5 .

(33) علي بن الحسن النباهي ، تاريخ قضاة الأندلس أو كتاب المرقبة العليا في من يستحق القضاء والفتيا، تحقيق : ليفي بروفنسال ، المكتب التجاري للطباعة ، (بيروت – 1958م) ، ص170 .

(34) شهاب الدين احمد بن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، دار الكتب الحديثة ، (مصر – 1967م) ، 420/3 0

(35) الناصري ، الاستقصا، 14/3 .

(36) ابن خلدون ، العبر، 357/7 .

(37) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب، ص296 .

(38) أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحاج من بيت رفيع بالعلم والفقه ، ينظر : الجزنائي ، جني زهر الأس ، ص53 .

(39) أبو العباس بن احمد القلقشندي ، صبح الاعشا في صناعة الانشا ، دار الكتب العلمية ، (بيروت–1987م) ، 199/5 .

(40) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص473 .

(41) احمد بن حسن بن الخطيب بن قنفذ ، الوفيات ، تحقيق : عادل نويهض ، المكتب التجاري للطباعة والنشر ، (بيروت –1971م) ، ص372 .

(42) التازي ، جامع القرويين ، 496/2 .

(43) الكتاني ، سلوة الأنفاس، 45/2.

(44) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص443 .

(45) ابن قنفذ ، الوفيات ، ص373 .

(46) النباهي ، تاريخ قضاة ، ص171 .

(47) ابن القاضي ، جذوة الاقتباس ، ص127 .

(48) سورة آل عمران : الآية 8 .

(49) محمد بن طيب القادري الذهبي ، التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار واعيان المائة الحادية عشر والثانية عشر ، دار الأوقاف الجديدة ، (بيروت–1983م) ، ص188 .

(50) القادري ، نشر المثاني ، 85/2 .

(51) المقري ، نفح الطيب ، 241/7 .

(52) عبد العزيز الفشتالي ، مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا ، تحقيق : عبد الكريم كريم ، وزارة الأوقاف الشؤون الإسلامية ، (الرباط –1972م) ، ص35 .

(53) معركة وادي المخازن وقعت عام 1578م ما بين المغاربة والبرتغاليين وهي من أهم المعارك الفاصلة في تاريخ المغرب لما حققته من نتائج مهمة للمغرب فقد انتهت بانتصار ساحق للمغاربة وخسارة كبيرة للبرتغاليين سميت بأسماء عدة منها معركة القصر الكبير لوقوعها بالقرب من مدينة القصر ، عبد الهادي التازي ، معركة وادي المخازن ، مجلة دعوة الحق ، المغرب– 1988 ، ص128 .

(54) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، دار الكتاب اللبناني ، (بيروت–1961م) ، 30/1.

(55) المقري ، نفح الطيب ، 241/2 .

(56) القادري ، نشر المثاني ، 126/1 .

(57) محمد بن محمد المراكـــشي الوفراني ، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي ، (الرباط–1986م) ، ص164 .

(58) القادري ، نشر المثاني ، 136/1.

(59) خير الدين الزركلي، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب المستعربين والمستشرقين ، دار العلم للملايين ، (بيروت-1979م) ، 121/7.

(60) حجي ، الحركة الفكرية ، 493/2 .

(61) عمر رضـــا كحالة ، معجم المؤلفين ، دار إحياء التراث العربي ، مكتبة المثنى ، (بيروت-1956م) ، 98/8.

(62) أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي ، التشوف إلى رجال التصوف ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، (الرباط- 1984م) ، ص260 ، ومن المعلوم ان التادلي توفي سنة 617هـ وكانت هذه الشخصية التي أشار إليها التادلي من أقدم شخصيات بنو فشتال ويرجع ظهورها إلى ما قبل المرينين ، ولم يتم ذكر الوفاة الشخصية من قبل المؤلف ولم يتم نعثر على وفاته .

(63) لسان الدين محمد بن عبد الله الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي ، (القاهرة -1973م) ، 189/2 .

(64) المقري ، نفح الطيب ، 71/7 .

(65) عبد الهادي التازي ، جامع القرويين ، دار الكتاب اللبنانيين ، (بيروت-1979م) ، 447/2 .

(66) المقري ، نفح الطيب ، 306/7 .

(67) لسان الدين محمد بن عبد الله بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، مكتبة الخانجي ، (القاهرة-1973) ، 133/2 .

(68) ولد سنة 967هـ/1560م واشتهر بلقبه الذي يرجع إلى تمكروت بوادي درعا جنوب المغرب التي انطلقت منها دعوة السعديين ، وكانت سفارته بشان موقف العثمانيين من البرتغال واحتلالهم لمراكز مهمة في المغرب ، ينظر : كريم ، المغرب ، 32 .

(69) عبد الهادي التازي ، التاريخ الدبلوماسي للمغرب من أقدم العـــــصور إلى اليوم – عهد السعديين ، مطابع فضالة ، (الرباط–1988م) ، 71/5.

(70) القادري ، نشر المثاني ، 113/1 .

(71) عباس بن إبراهيم المراكشي ، الأعلام بمن حل بمراكش واغمات من الأعـــلام ، (فأس–1936م) ، 221/5 .